ولنا الامل الوطيد ان الذين لا يؤمنون في ايامنا هذه ايام الانهماك في الخيرات الدنيوية والامور العالمية ، سيؤمنون بما اوحاه الله وتعلّمنا اياه الكتبة المتعلّمة من الروح القدس ، والتي وعدها مؤسسها يسوع المسيح ان يكون معها الى منتهى الدهر

الاعشى الاكبر (٦٢٢ او ٦٢٩م)

بقلم الاديب ميشيل سليم كسيد

١

توطئة

اذا ذُكرت الجاهلية تبادر الى الاذهان ذكرى ذلك العهد البعيد ، الذي روى عنه الرُّواة ما شاؤوا وشاءت مخيّلتهم ، واودعوا كتاباتهم من مولّدات مخيّلاتهم ما ارادوا . فاصبح ذلك الزمن واخباره اشبه بقصص الف ليلة وليلة ، واقرب اليها منه الى الحقيقة . واذا قرأ المرء الآن ما خطته انامل اولئك الكتبة ، وما اوحت اليهم القريحة المختلقة ، طارت نفسه الى عالم الخيال ، وتوهّم معيشة تلك الجماعات من البدو اسمى واعلى بكثير من معيشتنا الحالية ، في حين كانت الارض فراش الاعرابي ، والسماء غطاءه ، في اكثر الاحايين ، واكله الابارص والجراذين والثعابين ، وما تحويه الصحراء من امثال هذه الدويبات الدنيئة . وهكذا نسجت حول قطاحل شعراء الجاهلية خيوط الاوهام ، وحبكت لهم فصول روايات كثيرة . ومن هؤلاء الذين كثرت حول اسمهم الاساطير عنترة والنابغة والاعشى . ونختار الآن موضوعنا الاخير ، فقد عظّم الرواة شأنه ، وابدعوا في وصف مركزه ، لدى ملوك العرب ، ومساجلاته . بيدَ ان الامر لا يخلو من بصيص من الحقيقة ، وليس من دخان بلا نار . ولكنهم اتخذوا من الاعشى موضوعاً لبعض مشاحناتهم في صدر الاسلام ، واستغلّوه تأييداً لدعوى بعضهم .

الرجل

الاعشى هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف ، ويعرف بأعشى قيس أو الاعشى الاكبر ، ويكنى بابي بصير . ولد في النصف الاول من المئة السادسة للسيد المسيح . وكان يقال لابيه ، قيس بن جندل ، « قتيل الجوع » . وسبب ذلك انه دخل غارًا ، يستعدي فيه حرّ الهاجرة ، فسقطت صخرة سدّت فم الغار . وقيل في هجوه :

ابوك قتيل الجوع ، قيس بن جندلٍ وخالك رقّ من خماعة راضعُ

والاعشى شاعر من الطبقة الاولى بين شعراء الجاهلية ، يجمع في شعره كثيرًا من وصف الخمر والصيد وبعض المجون ، اشتهر بكثرة مديحه وهجائه . وقد قضى حياته متنقلًا بين أحياء العرب . وحريّ بمن كان صاحب لهو ولذة وطرب ، وجليس صهباء ، وأنيس اقداح ، ان يتتبع اقاصي البلاد ، ويطوف بالقوم يتلقّفهم ، وينابذ من عاداهم . وبلغ بالرواة ان رووا ، في شدّة تعلقه بالخمر ، انه حين ادركه الاسلام احجم عنه ، ولِمَ ؟ ليستوفي ما بقي لديه من بنت الكرم في المهراس . وكان يقول شعره غناء ، والعرب تدعوه « صناجها . »

قيمة شعره

قيمة شعره والرواة

اتفقت آراء الرواة والكتاب ان الاعشى من اعلام الشعر الجاهلي . وراجت حوله الاشاعات ، وتنوقلت القصص عن مبلغ تأثير شعره في احياء العرب . وان يكن بينها ما هو على شيء من الصحة والحقيقة ، فلا شك أن يد المبالغة قد لعبت دورها فيها كسائر اخبار الجاهلية . وفيما يلي بعض منها :

اخبر ابن سلام قال : سألت يونس النحوي : « من اشعر الناس ؟ . » قال : « لا أومئ الى رجل بعينه ، ولكني اقول : امرؤ القيس اذا غضب ،

والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب . » وقال يحيى بن الجون المبدي ، راوية بشار : « نحن حاكة الشعر في الجاهلية والاسلام ، ونحن اعلم الناس به : اعشى بني قيس استاذ الشعراء في الجاهلية ، وجرير بن الخطفى استاذهم في الاسلام . »

وروت الرواة ايضاً ان يحيى بن سليم الكاتب ، بعثه المنصور الى حمّاد ، يسأله عن أشعر الشعراء . قال : فأتيت باب حمّاد ، فاستأذنت . وقلت : « يا غلام . » فأجابني انسان من اقصى بيت في الدار . فقال : « من انت ؟ » فقلت : « يحيى بن سليم ، رسول امير المؤمنين . » قال : « ادخل رحمك الله . » فدخلت حتى وقفت على باب البيت . فاذا حمّاد . فقلت : « ان امير المؤمنين يسألك عن اشعر الناس . » فقال : « نعم . ذلك الاعشى صنّاجها . »

هذا بعض مما تتناقله الكتّاب ، من حيث مركز الاعشى وقيمة شعره ، وجودته ، وسيرى القارئ في التالي بعض ميزات الشاعر عن شعراء العرب في تلك الايام ، عند الكلام عن شعره .

تأثير الشعر عند العرب

كان من اكبر المؤثرات في اعصاب العرب الشعر في الجاهلية ، والدين والشعر في الاسلام . والشاعر عندهم بمنزلة الخطيب الآن عند جميع الامم . وايضاً في كثير من الاحايين ما كانت لتؤثر فيهم العصبية لولا الشعر . فكم من قصيدة غيّرت مجرى الامور والاحوال ، بل كم من بيت اسعر الحروب ، وكم من بيت ضربت لاجله الاعناق او عفيت اعناق ؟ !

وقد بقي للشاعر ، حتى في الاسلام ، مركز عظيم ، وشرف يناله حيث حلّ واتى ذهب . على انه لا يضارع ما كان له في الجاهلية ، حيث كان موضع كل اكرام ، وعنوان احترام كل اعضاء القبائل . ولا يمكننا ان نقدر مركزه ، إلّا حين نعلم انه كان قائد قومه بلسانه ، وامامهم ، وخطيبهم ، وحليمهم وحكيمهم وحَكَمهم ، والذابّ عن اعراضهم امام تحرّصات الاعداء . وقد كاد يكون البكل في الكل ! ... والاعشى هو اول من

اتخذ من الشعر متجرا يتجر به . ومن ايامه تفشّى هذا الداء العضال ، داء الضراعة . وممن والاه ، وكان معه من اساطين هذه الصنعة ، النابغة الذبياني. ومن ثمّ اتُخذ الشعر اداة للتسوّل ، وكسب الرزق ، وسرى هذا الداء في الشعراء ، سريان النار في الهشيم ، الى يومنا هذا.

وقد روت الرواة ان القبائل كانت تتهافت على اكرام الاعشى ، وتتسابق الى الحصول على رضاه. وتحدّثوا ان قريشاً ، حين رصدته في طريقه الى محمد ، كي ترجعه عنه فيذمّه ، وكانت تخاف ان يفوتها اليه فيمتدحه ويرفع ذكره بين العرب ، كانت تتحدث فيما بينها : « هذا صناجة العرب ، ما مدح احداً قط الا وفع قدره . » ومن هنا يظهر المركز الذي كان يحتلّه في تلك الايام ، وكيف كانت تتخوّف العرب من الشعراء. فبينا كانت تسترضي من يتكسب بشعره ، وتعتبر ذلك حطة من قدره ، كانت تجلّ الاعشى وتقدمه على سائر الشعراء . ومع انها كانت اوائذ تمادح وتتهاجى ، فلم تكن تتخذ الشعر اداة ضراعة ، ولا سعياً وراء الرزق ولا طمعا في مالٍ ونوال . بل كانت تمدح من يعاملها بالحسنى وتهجو من يشاكسها او يعاديها . ولكن الاعشى عرف كيف يغريها ويستهويها بفصاحته وقوة عارضته.

رووا ان الاعشى كان يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان المحلّق الكلابي متنساثاً مملقاً . فقالت له امرأته : « يا ابا كلاب ، ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ، فما رأيت احداً اقتطعه الى نفسه إلا اكسبه خيراً . » قال : « ويحكِ ، ما عندي إلّا ناقتي وعليها الحمل . » قالت : « الله يخلفها عليك باحسن منها . » قال : « فهل له بدّ من الشراب والمسرح ؟ » قالت : « ان عندي ذخيرة لي ، ولعلي ان اجمعها . » فجمع نفسه ووافاه قبل ان يسبقه اليه احد ، وابنه يقوده . فأخذ بالخطام . فقال الاعشى : « من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ » قال : « المحلّق . » قال : « شريف كريم . » ثم سلّمه اليه فاناخه . فنحر له ناقته. وكشط له عن سنامها وكبدها ، ثم سقاه . واحاطت به بناته فقال : « ما هذه الجواري حولي ؟ » قال : « بنات اخيك ، وهنّ ثمان شريدتهن قليلة . » وخرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً . فلما وافى

سوق عكاظ ، اذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها . واذا الاعشى قائم ينشدهم :

لعمري ! لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ الى ضوء نارٍ باليفاع ، تحرّقُ
تشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّقُ
رضيعَي لبانٍ ثدي أمٍ تحالفا بأسحم داجٍ عوض لا نتفرقُ

فسلّم عليه المحلّق . فقال له : « مرحباً يا سيدي بسيد قومه . » ونادى : « يا معاشر العرب ، هل فيكم مذكار يزوّج ابنه الى الشريف الكريم . فما قام من مقعده ، وفيهن مخطوبة إلا وقد زوّجها . » (١

من هذه القصة نستخلص كيف كان العرب يداهنون الشاعر ، ويضيفونه ويجاملونه . فان من عاداتهم ان يكرموا الشاعر ، ليكون لهم من جزاء ذلك الصيت الحسن والسمعة الطيّبة . فان الاعرابي من طبيعته ايام المحل ، ان يسعى الى الغزو ، لا يراعي في ذلك جاراً ولا عهداً . فاذا ما اضاف ، فعل ذلك استجلاباً لمنفعة . فاذا مرّت عليه « سنون طيبة ، ونزلت الامطار الغزيرة ، فأنعشت تلك الوحدة ، ونفخت اضراع سائمته . تذكر سليلُ اسماعيل جدَّه ابراهيم . فيتبدل حالاً الى سيد عظيم ، ويضيف بكرم . خصوصاً اذا وجد في جواره شاعراً ، يشيد بذكره في اربعة اطراف بلاد العرب — حيث الشاعر بمثابة الصحافي ، متحكم بالآراء — ويروي اخبار كرمه . لانه يحبّ التعظيم ، وهو ذو حاسة مجاذبية الاشعار الجميلة . ويعتقد ان الصيت الحسن يستحق الجلب بالذهب » (٢ فالشعر يستهويه ، فيقري الضيف ، ويأتي بالمكرمات على امل اذاعة صيته بين العرب ، واشتهاره بالكرم والسخاء . وكلنا يعلم اخبار حاتم طي : (٣

(للبحث صلة)

١) وفي الاغاني رواية مخالفة لهذه الحادثة اذ يجعل الجواري اخوات للمحلّق . (المشرق)

٢) H. LAMMENS S. J. : L'Islam, Croyances et institutions. (Hospitalité) p. 74

٣) نحن لا نميل الى تصديق كثير من روايات حاتم ، بل نحن اميل الى الاعتقاد ان حاتماً نفسه ما هو إلا حديث خرافة . وما اخباره إلا مراعم الفت في صدر الاسلام ، في اوان تغلبت فيه العصبية وسادت به التحزّبات . وهذه الرواية ، وان لم يكن للحقيقة فيها كبير اثر ، ما اوردناها إلّا لانها اكبر قصة في الجاهلية ، فيها يظهر ميل الاعراب الى جلب الصيت والاسم الحسن ، وانه هدفهم الاسمى وغرضهم الاقصى .